

2020

## الحرم الصوفي ودوره في تقنين العنف داخل المجتمع المغربي

لطيفة شرّاس

جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير, l.charrass@uiz.ac.ma

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [Arts and Humanities Commons](#), and the [Social and Behavioral Sciences Commons](#)

### Recommended Citation

"شرّاس, لطيفة (2020) "الحرم الصوفي ودوره في تقنين العنف داخل المجتمع المغربي", *Dirassat*. Vol. 22 : No. 24 , Article 3.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol22/iss24/3>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact [rakan@aarj.edu.jo](mailto:rakan@aarj.edu.jo), [marah@aarj.edu.jo](mailto:marah@aarj.edu.jo), [u.murad@aarj.edu.jo](mailto:u.murad@aarj.edu.jo).

---

## الحرم الصوفي ودوره في تقنين العنف داخل المجتمع المغربي

### Cover Page Footnote

ابن منصور، لسان العرب 2 / 486،485-2 سورة القصص، الآية 57 3- محمد المنصور، "الحرم"، معلمة المغرب-1  
3385/10 محمد المنصور، "الحرم"، معلمة المغرب 4- 3385/10

## " الحرم الصوفي " ودوره في تقنين العنف داخل المجتمع المغربي

ذة: لطيفة شراس

كلية الآداب أكادير

جامعة ابن زهر

### مقدمة :

الحرم (ح.ر.م) جمع أحرام مصدر حرم وهو مكان مقدس لا يحل انتهاكه، ويحرم فيه القتل وإراقة الدماء وكل أشكال العنف. وبالتالي فهو المكان الآمن الذي يلجأ إليه كل ملهوف مستغيث<sup>1</sup> يخاف على نفسه من عقوبة أو انتقام. ينطق به عامة أهل المغرب بالحرم- بضم الحاء وسكون الراء.

أكتسى الحرم بهذا المعنى أهمية دينية واجتماعية، وأصبح جزءا كبيرا من معتقدات الكثير من الشعوب منذ القدم. كعرب شبه الجزيرة العربية حيث كانت مكة مجالا مقدسا تقصده القبائل المجاورة للتجارة أو العبادة أو النظر في شؤون السلم والحرب، " أو لم نمكن لهم حرما أمانا تجبي إليه ثمرات كل شيء".<sup>2</sup> بل ومع مجيء الإسلام أضيف حرم ثاني وهو حرم المدينة المنورة، وبذلك أصبحت شبه الجزيرة العربية تتوفر على حرمين بدل حرم واحد. فيقال زار الحجاج الحرمين أي مكة والمدينة.

عرف المجتمع المغربي بدوره "مؤسسة الحرم" قبل وصول الإسلام في صور وأشكال متعددة ومختلفة، حيث مارست القبائل الأمازيغية التقليد المعروف "بالزواك" أو "العار" كشكل من أشكال حد العنف والاستمرار في الاقتتال<sup>3</sup>. وفي قبائل الأطلس المتوسط يحرم القتال خلال أوقات معينة من السنة، كأوقات الحرث أو جمع الغلل الزراعية. كما أن قبائل الريف كانت تعتبر السوق الأسبوعي مجالا لا يسمح لأحد بانتهاك حرمة أو اقتراف شكل من أشكال العنف على أرضه<sup>4</sup>.

1 - ابن منظور، لسان العرب، 2/ 486، 485.

2 - سورة القصص، الآية 57.

3 - محمد المنصور، " الحرم"، معلمة المغرب، 10/ 3385.

4 - محمد المنصور، " الحرم"، معلمة المغرب، 10/ 3385.

أما مع مجيء الإسلام، فقد تركزت بعض الأشكال واختفت أخرى وارتبط الحرم كمؤسسة تنظيمية للمجتمع المغربي ارتباطا قويا بعنصرين أساسيين هما: الشرف والصلاح.

فأصبحت العديد من المؤسسات ذات الطابع الصوفي من أضرحة الصلحاء والشرفاء والزوايا أماكن يستجار بها، وتقصد من طرف كل فار من ثار يلاحقه أو عقاب يهدده.

إذن لماذا قصدت هذه المؤسسات لطلب الاستجارة، ولم يقصد المسجد على الرغم من أنه كان يتمتع بقدسية كبيرة. كبيت لله، حيث أن العامة كما لاحظ وستر مارك عالم الإثنوغرافيا الفنلندي الذي وصف بدقة المعتقدات والمؤسسات الدينية بالمغرب لم تعتبر المسجد حرما وفضلت الاستجارة ببيوت الأولياء<sup>1</sup>.

تساءل كذلك عن الأساليب التي نهجتها هذه المؤسسات الصوفية للحد من العنف أو تنظيمه على الأقل. وما هي "الأحرام" التي اشتهرت في هذا المجال أكثر من غيرها في تاريخ المغرب، والعوامل التي أهلتها لتحقيق ذلك.

يمكن أن تتساءل أيضا عن علاقة هذه المؤسسة الدينية – الاجتماعية مع مؤسسة المخزن، وعن حدود التفاعل بينها بالقبول أو التعارض.

### أولا: مجال الحرم والمؤهلات المتحكمة في تقوية نفوذه.

كما سبقت الإشارة، فإن أماكن الحرم في الغالب هي أضرحة الأولياء المتصوفة والزوايا. وما ينبغي الإشارة إليه منذ البداية هو اختلاط وتمازج دور الزاوية في هذا المجال أي تلبية طلب الأمان والاحتفاء بدور ضريح الصالح اعتبارا لتشخيص ضريح الصالح للزاوية.

كما أن مجال الحرم لا ينطبق دائما على حدود الضريح أو الزاوية أو بناءها الأصلي، بل إنه يشمل كل حدود الزاوية وأحيانا مجالات نفوذها الشاسعة، وكل ما يحيط بها من أراضي وسواقي وغيرها. مثلا فإن حرم زاوية الشيخ سعيد المشزائي بمكناس، يبدأ من ساقية بعيدة عن هذه

1- E.Westermark, ritual and belief in morocco,vol2, New York, 1968,vol 2, p 578.

الزاوية تفصل بينها وبين مدينة مكناس، " وحد الحرم من ناحية البلد الساقية الجارية بالماء وهي إلى البلد أقرب منها إلى الزاوية، ولقد رأيت الحكام يتبعون الجاني حتى إذا وصل إلى الساقية رجعوا عنه، وعندهم بالتجربة المكررة أن الذي يتخطى الساقية، تصيبه عاهة من حينه وما رأيت بزوايا المغرب ومصارع الأولياء حرما مثل حرم زاوية هذا الشيخ. وأن الأمراء يتحامون حماها احترازا من وقوع العاهات بهم في العاجل".<sup>1</sup>

كما أن حرم الزاوية الوزانية أو ما عرف بحرم "دار الضيافة" يشمل حدود تراب مدينة وزان، ومركزه ضريح مولاي عبد الله بن إبراهيم العلمي.<sup>2</sup>

وإذا كان الحرم العلمي هو الحوش المحيط بضريح القطب المؤسس مولاي عبد السلام بن مشيش دفين جبل العلم في قبيلة بني عروس، فإن الحرم التاريخي والعرفي شمل نطاقا أوسع تجاوز حدود جبل العلم، إذ قدرت مساحة الحرم القديمة بنحو خمسين ألف هكتار، موزعة بين أربع قبائل: بني عروس وبني ليث وبني يوسف وبني يدر. إذن فقد اتسع الحرم العلمي ليشمل مجالا جغرافيا وبشريا شاسعا.<sup>3</sup>

وقد كانت توضع شروط وأعراف صارمة لا بد من احترامها وعدم تجاوزها من قبيل، أن لا يقرب المخزن ساحة الحرم الوزاني أو الحرم العلمي، ولا يطوف حولها، ولا يمشي أحد فوق ترابها إلا طاهرا منتعلا، ولا يحمل فيها سلاح.

إذن فقد كان لكل حرم مجالات محددة وحدود معروفة مثبتة أحيانا بمواثيق وظهائر سلطانية، يحترما الخاص والعام ولا يقدر أحد على تجاوزها. فكان حرم مولاي إدريس بفاس مثلا الذي احتل الصدارة في هذا المجال عبر تاريخ المغرب- يمتد إلى عدة أزقة حول الضريح الإدريسي، وقد وضعت علامات خشبية عند منافذ هذا الحرم يصبح كل من تجاوزها باتجاه الضريح آمنا وفي ذمة الشرفاء الأدارسة الساهرين على أمور ضريح جدهم.<sup>4</sup>

1 - محمد بن عسكر الشفشاوني، دوحة الناشر، 73 تحقيق محمد حمي، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، البيضاء، 2003.  
2 - محمد عمراني، الشرف والمجتمع والسلطة السياسية بالشمال الغربي المغربي، بين النصف الثاني من القرن 9-13هـ/ ونهاية 15-19م. 307 دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2015.  
3 - محمد عمراني، " الحرم العلمي"، معلة المغرب، 10 / 3387.  
4 - محمد المنصور، "الحرم"، 3385.

لا نفوتنا الإشارة كذلك، إلى أن الحرم الصوفي لم يكن دائماً مجالا تريبيا، بل يمكن أن يكون كذلك "زمننا مقدسا"، ففي حديث محمد بن عسكر الشفشاوني عن مناقب الشيخ سيدي محمد بن مبارك الأفاوي الذي يعد من فطاحل فقهاء بلاد سوس والمؤسس الروحي للدولة السعدية، ذكر "أنه وضع أياما معلومة في كل شهر يسمونها أيام سيدي محمد بن المبارك، لا يحمل فيها أحد سلاحا ولا يقدر أحد على المشاجرة فيها. ويجتمع الرجل مع قاتل أبيه وولده وما يقدر أن يكلمه وذلك شائع عند قبائل العرب والبربر من أهل السوس وبلاد القبلة"<sup>1</sup>.

ولم تكن كل مجالات الحرم، تتمتع بنفس القدر من الاحترام، كما أن بعض الزوايا مارست وظيفة الحرم بشكل بارز أكثر من غيرها، كما هو شأن الزاوية الشرقاوية والخصالية بوسط المغرب أو الزاوية الناصرية بجنوبه أو الزاوية الوزانية بشماله.

ولا غرو فإن تصور الحرم وتوقيره كان يختلف، فالزاوية التي كانت تتمتع بنسب شريف وسمعة ذائعة وشهرة قديمة، كانت تقصد في الغالب قبل غيرها من الزوايا. ويزيد هذا الاحترام في حال توفر الزاوية على عصبية قوية. فإذا كان الناس بشمال المغرب يفضلون الضريح المشيشي ويضعونه في المقام الأول كملجأ يحمي به، فذلك راجع بالأساس إلى عصبية الشرفاء العلميين الذين كانوا يشملون برعايتهم وحمايتهم كل من قصدهم واستجار بضريح جدهم. وكان السلاطين على الرغم من قوتهم وهيبتهم يراعون هذا الحرم ولا يقتحمون حدوده، حتى عندما يستعمل كملجأ من طرف الثائرين والخارجين على الدولة. وهناك أمثلة كثيرة سنشير إلى بعضها في النقطة الموالية من هذه الورقة العلمية.

كما أن قدرة الضريح على توفير الحماية للفارين من الأحكام المخزنية كانت ترتبط ارتباطا شديدا كذلك بالمكانة التي يحتلها أصحاب هذا الضريح لدى المخزن نفسه. إذ أن السلطان كان هو الذي يمنح ظهائر التوقير والاحترام، وبالتالي كان بوسعه أن يقوي جانب حرم ويضعف جانب حرم آخر<sup>2</sup>.

1 - محمد بن عسكر الشفشاوني، دوحه الناشر، 103.

2 - محمد المنصور، "الحرم"، معلمة المغرب 10 / 3386.

وخير مثال على ذلك هو الاحترام الذي أصبحت الزاوية الفاسية تتمتع به خلال القرن 17 م زمن المولى اسماعيل حيث استفادت من عدة امتيازات مخزنية، كبناء وتوسيع مساحة الزاوية التي تضاعفت أربع مرات، كما استفادت من الهبات أو تحجيس ممتلكات وغيرها<sup>1</sup>. وكنتيجة لهذا الدعم المخزني أصبحت الزاوية حسب محمد بن الطيب القادري حرماً متميزاً يقصده الراغبون في الملجأ والهاربون من أحكام الولاية دون أن يستطيع أحد من هؤلاء أن يسهم بسوء مما كان نوع جريمته<sup>2</sup>. بل إن الباحثين عن الحماية بمدينة فاس أصبحوا يفضلون زاوية الفاسيين ويشعرون فيها بالأمن أكثر مما كان الحال بأضرحة تقليدية أخرى، مثل الضريح الإدريسي خلال هذه الفترة التاريخية.

## ثانياً- أشكال اللجوء إلى حرم الزوايا والأضرحة، وآليات تمثليه في تدبير الخلاف والمنازعات

من خلال العديد من الأمثلة والنماذج المستقاة من النصوص التاريخية التي وقفنا عليها، يجوز تصنيف المستجيبين بحرم الزوايا والأضرحة إلى عدة أصناف:

- الخائفون من العنف بمختلف أشكاله وأسبابه طبيعية كانت أو بشرية.
- المتلمصون من أداء الواجبات الشرعية والكلف المخزنية.
- الجناة الهاربون من العدالة.

وبذلك يمكننا كذلك التمييز في توظيف الحرم، بين توظيف اجتماعي عادي سواء على المستوى الفردي أو الجماعي للإنفلات من عقاب الحكام وعنف المجتمع. وتوظيف سياسي يتعارض في غالب الأحيان مع سلطة المخزن، غير أن بعض المؤرخين يرى أن أكثر أنواع الحماية وأشدّها أثراً في الناس، "هي تلك التي تضع بين الفرد وبين السلطة حجاباً"<sup>3</sup>.

### 1- حرم الزوايا ملجأ للأمرء الثائرين:

سجلت الروايات الإخبارية والمناقبية حالات عديدة من لجوء عدد من الأمرء الثائرين على العرش، أو المتنازعين فيما بينهم حالات الشغور السياسي، نذكر من ذلك أنه في خضم التنافس

1- محمد بن الطيب القادري، نشر المئاني، تحقيق محمد محي وأحمد التوفيق، الرباط، 1986.

2 - نفسه، 3/301

3 - عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري، 189، منشورات جامعة الحسن الثاني، 1989..

الشديد بين أبناء المولى إسماعيل على العرش، وبالضبط في سنة 1140م/1728م. فر السلطان المخلوع المولى أحمد بن إسماعيل إلى الزاوية الحنصالية واحتفى بجرهما، خوفاً من عقاب أخيه عبد الملك، الذي أمر حراسه بسمل عينيه فور بلوغه إلى سجلماسة<sup>1</sup>.

وفي منتصف القرن 18م، لجأ الأمير مولاي اليزيد المتمرد على والده السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى الحرم العلمي المشيشي، وأرسل وفداً من أعيان شرفاء جبل العلم إلى مدينة مراكش. هذا الأخير الذي وجد نفسه عاجزاً عن اقتحام مجال الحرم العلمي لإخراج ولده بالقوة من مكان إقامته بقرية الحصن، تحسباً لما قد ينتج عن ذلك من فتنة على يد قبيلة بني عروس وحلفائها واقتصر عمله على تطويق مساحة الحرم وتشديد الرقابة على مخارجه<sup>2</sup>.

وما تجدر الإشارة إليه، أن هذا الأمير لم يستفد فقط من احترام وتقدير سلطة الحرم من طرف والده فحسب، بخروجه سالماً منه، بل ضمن له كذلك اعتلاء العرش، فبمجرد وفاة والده وبعد مضي سنة عن تاريخ لجوئه إلى جبل العلم، تلقى البيعة من شرفاء جبل العلم، ومن أعيان القبائل الجبلية الموالية لهم بضريح الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش<sup>3</sup>.

وفي عهد الشيخ أحمد الخليفة شيخ الزاوية الناصرية، اندلعت مواجهة عسكرية بأغلاف، بين الأمير عبد الملك بن إسماعيل الذي عينه والده على درعة وأعمالها سنة 1111هـ/1700م، وبين أخيه أبو النصر، الذي استطاع انتزاع العمالة منه سنة 1114هـ/1703م. فبعث السلطان بابنه الآخر المتولى الشريف إلى عين المكان لمحاصرة أخيه المتمرد، الذي فر ولجأ إلى الشيخ أحمد الخليفة واحتفى بجمي زاويته، فتدخل هذا الشيخ للتحكيم بين الأخوين وحقق دماء الفريقين<sup>4</sup>.

وللإشارة فإن الشريف بن إسماعيل كان عازماً على اعتقال أخيه ومعاينة اتباعه، لكن بفضل وساطة الشيخ اكتفى بمطالبة المتمردين بتسليم الخيل والسلاح ومغادرة المنطقة على وجه السرعة، في حين استأمن أبو النصر الشيخ، ونبهه على الحذر من غدر أخيه آنذاك.

1 - محمد القادري، نشر المثنائي، 3 / 301، أحمد الناصري، الاستقصا 7 / 120.

2 - محمد عمراني، الشرف والمجتمع والسلطة، 289.

3 - نفسه 299.

4 - أحمد عمالك، جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية، 2/429 منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2006.



استطاع الحكم أن ينتزع الامان لصالح أبي النصر، ليفسح له المجال لمغادرة درعة بعد أن سلم لأخيه الوالي الخليل والسلاح.

وبفضل ذلك التحكيم نجا المولى أبو النصر من سطوة أخيه المولى الشريف، ثم إيقاف نزاع كان من الممكن أن يتسبب في هلاك الحرث والنسل، لاسيما وأن ميدان الاقتتال لم يكن بعيدا عن زوايا الناصريين.<sup>1</sup>

## 2- حرم الزوايا ملاذ لمثلي السلطة فرارا من عقابها:

تفص المتون المناقبية بالإشارات الدالة على احتواء مثلي المخزن بكل أطيافهم بحرم الزوايا خوفا من عقاب السلطان. ففي العهد المريني " استشفع أحد خدام الوزير محمد بن السلطان أحمد المريني، وكان واليا من قبل أبيه على مكناسة، بزواية الشيخ سعيد المشنزائي بمدينة مكناس، فأمنه الشيخ وتدخل لدى الوزير بطلب الصفح لكن الوزير تجاوز وعده وخرج عن أمانه وقتل خادمه... فوعك الوزير تلك الليلة وتسلط عليه أكل في جسمه فتمزق لحمه وتقطعت قطعاً شيئاً فشيئاً حتى تمزق جسمه ومات لأيام قلائل"<sup>2</sup>.

يشير هذا النص كذلك أنه في حالة عدم مراعاة السلطان أو غيره لحرم الزاوية، فإن الروايات المناقبية تنسج حكايات ينتصر فيها بطلها دائما- أي الشيخ المحتمي به- وتنزل ببركة دعائه أقصى العقوبات بالمتنوع المتعدي لحرم زوايته. ويعد نشر مثل هذه الإشاعات من قبل منتجي سير وكرامات هؤلاء الشيوخ، من باب الحض على المزيد من مراعاة وتقديس الزاوية وعدم انتهاك حرمتها. إذن فهي آلية من بين الآليات الرمزية التي يعمد إليها الشيوخ المحتمي بحماهم لتحقيق هذا الهدف. وفي عهد المولى اسماعيل، وعلى إثر انهزام الأمير الثائر أحمد بن محرز، أمام عمه المولى إسماعيل بمدينة مراكش، فر قائد هذه المدينة بنفسه لأنه خالف السلطان، وناصر منافسه أحمد بن محرز، والتجأ إلى زاوية أبي يعزى بقرية تاغيا بجبال الأطلس المتوسط، حيث مكث طويلا حتى عفا عنه السلطان"<sup>3</sup>.

1 - قسه، 2/294

2 - محمد بن عسكر الشفشاوني، دوحه الناشر، 72.

3 - عبد الكريم الربيعي، زهر الأك، دراسة وتحقيق آسية بعدادة، 160، الرباط، 1992.

وكان الحرم العلمي ملاذاً آمناً لمجموعة من القواد الذين لجؤوا إليه للنجاة من عقاب السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وأبرزهم القائد محمد بن عمر لوقش التطواني. فحسب رواية أبي القاسم الزياني، فقد حل هذا القائد بقرية الحصن مباشرة بعد بيعه هذا السلطان سنة 1757م، للنجاة بنفسه خوفاً من الانتقام، بسبب عصيانه لأوامره حينما كان خليفة بمراكش.<sup>1</sup> وحمل القائد معه إلى هذا الحرم ماله وأسرته، واشترط عليه الشرفاء بناء مسجد ومدرسة بقرية الحصن ما يزالان يحملان اسم لوقش إلى يومنا هذا مقابل الاستفادة من حق الاستجارة.<sup>2</sup> استجار بنفس القائد عبد الرحمان أشعاع، عقب وفاة المولى اليزيد، خوفاً من أن يفتك به المولى مسلمة. كما يذكر الضعيف<sup>3</sup>، غير أنه لم يوضح سبب ذلك. المهم أن هذا القائد استفاد من وظيفة الحرم، وضمن لنفسه النجاة من عقاب محتمل.

كما توسط شيخ الزاوية الناصرية أبو بكر الناصري لفائدة قائد الرحامنة الصديق بن الطاهر حين لجأ إلى تامكروت " ليحترم بها" من سطوه السلطان عبد الرحمان بن هشام. الذي كان قد هم بمصادرة ممتلكاته، فأقام بها مدة طويلة معززا مكرما حتى وفاته.<sup>4</sup>

كما التجأ القائد الجليلي الدماقي فارا من ثورة قبيلته إينولتان إلى زاوية تاغملت زمن شيخها أحمد بن العباس التانغمتي<sup>5</sup>. ويؤكد العجداي أن القائد مكث بها معززا مكرما لم يمسه أحد بسوء حتى انفرجت الأزمة<sup>6</sup>.

وقد كان العرف الجاري به العمل في طلب الاستجارة بأغلب حرمت الزوايا، أن يقوم المستجير بنحر الذبيحة على ضريح شيخ الزاوية أو ما يعرف في المجتمع المغربي "بالتعريكة". طالبا من أصحاب الزاوية الشفاعة لدى السلطان وضمان الخروج من الحرم بأمان.<sup>7</sup>

وما يجب التأكيد عليه، أن مثل هذا النوع من الاستجارات، عكس ما قد يتبادر إلى الذهن، لم تكن متناقضة مع السياسة المخزنية، بل هي بمثابة تأجيل لتنفيذ حكم مخزني، مع إشراك

1 - أبو القاسم الزياني، الترجمان المغرب، 71، باريس، 1986.

2 - محمد عمراني، الشرف، السلطة والمجتمع، 300.

3 - محمد عبد السلام الضعيف، تاريخ الضعيف، تحقيق أحمد العمري، 241، الرباط، ط 1986.

4 - أحمد عمالك، جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية، 2 / 431.

5 - أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن 19 (إينولتان، 1850-1912)، 439، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1983.

6 - أحمد عمالك، جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية 2 / 434.

7 - محمد المنصور، "التعريكة"، معلمة المغرب، 7 / 2411.

ممثل الحرم في القيام بدور التماس الشفاعة من السلطان بالعمو أو بالتخفيف من العقوبة المقررة في حق المستجيرين. الشيء الذي يسمح بإيجاد حلول سلمية للكثير من الخلافات المستعصية. كما أن لجوء أمير متمرّد إلى حرم الزوايا المشهورة. يعتبر في واقع الأمر نهاية للمواجهة العنيفة والمفتوحة وبداية للحل السلمي وفتح باب الحوار تحت ضمانة أصحاب الحرم. الذين كانوا غالباً ما يضمنون حلاً يوقف خطر التمرد بالنسبة للمخزن، ويحفظ ماء الوجه بالنسبة للأمير المهزوم، الذي يطلب منه في الغالب أن يعتزل الحياة السياسية أو يرحل إلى جهة ما يخفي فيها خطره، كما توضّحه أغلب الأمثلة المسوّقة.

### 3- اللجوء الجماعي إلى حرم الزوايا زمن الفتن والاضطرابات:

لا يتم اللجوء إلى حرم الزوايا دائماً بشكل فردي، تتعدد الأمثلة التاريخية على اللجوء الجماعي. إما خوفاً من بطش المخزن، أو بسبب احتدام النزاع بين القبائل، أو بسبب انعدام الأمن وتفشي الخوف والهلع بين الناس نتيجة غياب سلطة المخزن أو ضعف تمثيلها، أو نتيجة انتشار بعض الآفات الطبيعية. ففي خضم الأحداث التي عرفها المغرب إبان ثورة أحمد الناصر ضد عمه أحمد المنصور الذهبي بالشمال الشرقي للمغرب، لجأ عدد كبير من الناس إلى الزوايا. واجتمع في الزاوية الريسونية جمع غفير من المعادين لأحمد المنصور الذهبي.

ورغم أن المنصور اختار لقيادة حملته أشد قواده بطشاً، ورغم أن هذا القائد لم يتورع عن مهاجمة زاوية عبد الرحمان المجذوب. فإن زاوية ابن ريسون سلمت من ذلك، ونجحت في حماية اللائذين بجرمها.<sup>1</sup>

أما في عهد المولى إسماعيل، وعلى إثر تداعيات قضية تمليك الحراطين المعروفة، فقد حتمت قبيلة بأكلها تدعى قبيلة أولاد مبارك، وهي فرع من قبيلة بني موسى بسهل تادلا بجرم الزاوية الشرفاوية، فراراً من وطأة عملية جمع الحراطين التي عانت مراراً هذه القبيلة بشكل كبير. إذ أن المكلفين بهذه العملية ادعوا على القبيلة بأكلها بأنهم عبيد، بسبب سواد لون بشرتهم.<sup>2</sup>

واتسع نطاق الاستجارة الجماعية بجرم الزاوية الوزانية ليشمل القبائل والجماعات الهاربة من سطوة قواد عبيد جيش البخاري خلال أزمة الثلاثين سنة التي أعقبت وفاة المولى إسماعيل، ومنها قبيلتي سفيان وبني مالك.<sup>3</sup>

1 - عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، 189.

2 - لطيفة شرّاس، تاريخ التصوف بتادلا، مقارنة وظيفية، منشورات كلية الآداب بأكادير، 2019، ص 243

3 - محمد عمراني، الشرف، السلطة والمجتمع 308.

نذكر أيضا لجوء قبيلة الصباح سنة 1215 هـ / 1801م إلى الحرم الوزاني احتجاجا على تعيين القائد عبد القادر الغماري من طرف المخزن، بعد اتفاق القبيلة على تعيين قائد آخر. واستمر اعتصام أهل الصباح بالحرم إلى أن أخرجهم الشيخ سيدي علي بن أحمد بالأمان ورافقهم، وتشفع لهم عند السلطان مولاي سليمان<sup>1</sup>.

ويذكر الباحث محمد عمراني، أن الحرم الوزاني قد ساهم بشكل كبير خلال القرن 19 م في تأمين القبائل من مختلف الأنحاء من عنف المخزن. لكن سلطته بدأت تتقلص تدريجيا خلال النصف الثاني من هذا القرن، بسبب تراجع النفوذ الروحي للشرفاء الوزاريين وانقسامهم وصراعهم على النفوذ، وتأزم علاقة شيخ الزاوية سيدي الحاج عبد السلام بالمخزن، فضلا عن انتشار شكل جديد من الحميات وهو الحماية الأجنبية<sup>2</sup>.

وشكل الصراع القبلي داعيا آخر من دواعي طلب الحماية من شيوخ الزاوية، من أجل تسهيل بعض المهام الاقتصادية فلاحية أو تجارية، والمساعدة على استمرار الحياة بكل ما تتطلب من استقرار وأمن. ولعل أحسن نموذج للاستدلال على ذلك، ما قام به الشيخ محمد بن محمد بن عبد الرحمان الصومعي شيخ الزاوية الصومعية الواقعة بالدير قرب مدينة بني ملال، حينما لبي استجابة قبائل أيت محند من أيت أسرى الجبليين لدى القائد الموجود بقصبة تادلا، المدعو موسى الجيراري لتسهيل محمتهما في اكتيال الحبوب من قبائل السهل.

إذ أن هذه القبيلة كانت ممنوعة من النزول إلى السهل، بسبب عصيانها وعدم دخولها في طاعة الأمير أحمد بن إسماعيل، وتذكر الرواية المناقبية أن تدخل الشيخ انتهى لصالح هذه القبيلة. "قدموا له ما يزيد عن ثمانين شاة من الغنم أكباش. وقالوا له: أردنا من سيدنا أن يتكلم لنا مع القائد موسى حتى يؤمننا في يدك حتى نكيل الزرع لأولادنا. فقدم شيخ الزاوية للقائد المذكور. وأخبره بأن أيت محند لاذوا به وطلبوا الأمان في يده حتى يكيلوا (...). فقال له القائد: يا سيدي إن قدم النصرى معك أمنت عليهم فأحرى أولئك الأقوام. فرجع المرابط إلى البرابر فأخبرهم بمقالة القائد. ونزلوا معه وباع لهم شعيرا كان لهم عند أيت بريش من سمكت نحو ثمانين غرارة"<sup>3</sup>.

1 - محمد بن عبد السلام الضعيف، تاريخ الضعيف، 324.

2 - محمد عمراني، الشرف، السلطة والمجتمع 310.

3 - لطيفة شراس، تاريخ التصوف بتادلا، مقارنة وظيفية، 415.

وفي نفس السياق، ننقل نموذجاً آخرًا من واحات درعة، حيث احتفي " بنو يربوع سكان قصر تنصرفت الذين اضطهدهم جيرانهم، بزواية تمكروت فأمر الشيخ محمد بن ناصر أخاه الحسين بالاتصال بأعيان القصر المذكور للسماح إلى أولئك المستضعفين بسكنى قصر تنكمت".<sup>1</sup>

ولم يقتصر الشيخ على إرجاع الأمور إلى نصابها، بل وعد بتقديم ضمانة لإقرار صلح دائم بين الفريقين، معبرا عن ذلك بقوله: "وقل لهم كل ما ثبت عليهم من الحق فنحن لكم به"<sup>2</sup>.

وعندما تتفام الأحوال، وتشتد المحن، مثلما حدث في سنة 1147هـ/1735م، حيث نزل القحط بأيّ خليفة إحدى قبائل الأطلس المتوسط، ولما فشوا الجوع في الناس، تقاتلوا وتناهبوا. فحلت القرى والمداشر، وانقطعت السبل، فقصدوا زاوية عبد الله الخليلي وهو من أكبر تلامذة الناصريين وأتباعهم بهذه الجهة. و" استحرموا بزايته"، فبدل هذا الشيخ كل ما في وسعه للتهديء من روعهم، وهب إلى التوسط بين المتناحرين، وخفر المسافرين. بل لقد عمد إلى تهيئ الحساء لإطعام الجائعين.<sup>3</sup>

## استنتاج

يتضح إذن أن مؤسسة الزوايا، إلى جانب أسلوب التحكيم والوساطة الذي مارسه من أجل الحد من الصراعات الاجتماعية والسياسية. فإنها بمنحها فرصة للجوء إلى حرمها والاستجارة به، قد مارست شكلا آخرًا من أشكال تنظيم العنف وتقنيه داخل المجتمع المغربي.

وإذا اعتبر الشيوخ المتصوفة مسألة الحرم من المكونات المقدسة لزواياهم، التي لا يجب تجاوزها وتعدي قدسيّتها. فإن المخزن المغربي كان له على الدوام، مبرراته لفحص هذا التصور ومراقبته، فتدخل بتنظيم "مؤسسة الحرم" تنظيمًا محكمًا عبر التشريعات الرسمية التي استنتها أغلب الأسر التي تعاقبت على حكم المغرب. هذه التشريعات التي اتخذت في الغالب، شكل ظهائر توقيير واحترام لأنها كانت تخدم مصلحته في الكثير من المنازعات.

1 - أحمد عالك، جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية 2 / 413، قلا عن رسائل ابن ناصر، نسخة تطوان، 409.

2 - نفسه، 2 / 415.

3 - عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، 189.

وأكتسى تدخل المخزن أيضا طابعا صارما لتصحيح المدلولات الشرعية والسياسية لهذه المؤسسة، وهو ما اتضح انطلاقا من النصف الثاني من القرن 18 م. عندما أصبحت مؤسسة الحرم تشكل في نظره خطرا على الدولة وسيادتها، حيث اضطر السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى مهاجمة أبي الجعد في 12 فبراير 1786م، وإخلائها من أهلها بعد أن اتهم الشرفاويين بإيواء الفارين من الأحكام المخزنية بزوايتهم.<sup>1</sup>

كما وجه المولى سليمان رسالة شديدة اللهجة إلى الشيخ سيدي علي بن أحمد، مؤداه أن استعمال حرم الزاوية الوزانية لإيواء المتمردين، يتعارض وأحكام الشريعة الإسلامية، يقول السلطان: "اعلم أي إنما أردت أن من يكون بزواية وزان واقف مع الشرع المطاع ويكون كالشهاب يحميها من الشياطين لأنها بلد بالمغرب، ومن كان بها كأنما يكون ببلده (...). ولا فارقا بخرية أو محدثا يأتي لتلك البقعة الطاهرة (...). وأنت بمعزل عن القوم الذين يريدون مجرد الجاه الديوي ويجعلون أمكتهم خيرا من مكة والمدة بجهلهم، لأنهم لا يجيرون عاصيا يتعرضون إلى لعنة الله ورسوله والملائكة والناس أجمعين، والخراب ولو بعد حين بإيوائهم المحدثين، وحقيقة الزاوية أن يلجأ إليها كل من هرب إلى الله من ظالم، وليست محررا للظالمين".<sup>2</sup>

وقد تقوى هذا التوجه خلال القرن 19م بشكل خاص، عندما اتسع نفوذ القوى الدينية وأصبحت بعض الزوايا تتحدى سلطة المخزن بربطها علاقات مباشرة مع الأوربيين، بل إن شيوخ بعض الزوايا وضعوا أنفسهم تحت حماية النصارى، شأن محمد بن سعيد مولاي الحاج المصلوحي الذي حصل على الحماية البريطانية سنة 1894م<sup>3</sup> أو لشيخ الزاوية الوزانية الحاج عبد السلام الذي دخل بصفة رسمية في حماية فرنسا مع نهاية سنة 1300م/1883م<sup>4</sup>. الشيء الذي أضر بمكانتهم في المجتمع وأثر سلبا على وظيفة حرم الزاوية بشكل مباشر.

1 - محمد بن عبد السلام الضعيف، تاريخ الضعيف، 888.

2 - مقتطفات من رسالة السلطان مولاي سليمان إلى الشيخ سيدي علي بن أحمد، بتاريخ ذي الحجة 1200/269، 1796 منشورة في تاريخ الضعيف،

3 - محمد المازوني، "من قضايا الحماية القصلية بالمغرب خلال القرن التاسع عشر، الحماية البريطانية لشيخ الزاوية المصلوحي"، ضمن كتاب جماعي، تحت عنوان: "التصوف المغربي مصدر اشعاع وتواصل، 435 منشورات كلية الآداب، القنيطرة، 2015،

4 - محمد عمراني، الشرف، السلطة والمجتمع 311.

ونشير في الختام إلى موفق العلماء من هذه المسألة، وخاصة المتشبعين منهم بالأفكار السلفية، الذين كان لهم بعض الدور في إضعاف مؤسسة الحرم كما كانت تمارسه الزوايا وأتباعها من عامة الناس، فمنذ نهاية القرن 19 م وبداية القرن العشرين أصبحنا نرى بعض العلماء يفتنون بعدم شرعيتها إذا كان يؤدي إلى معارضة نصوص الشرع ويكسر ممارسة اعتبروها جاهلية مثل "الزواك" أو "العار". فرمي العار على الأولياء،<sup>1</sup> يقول محمد بن جعفر الكتاني طلبا لمحايتهم أو رغبة في شفاعتهم، هو عمل لا يقوم به إلا "الجهالة الأغبياء" ويتضمن سوء أدب مع أولياء الله لما ينطوي عليه من نية الإكراه، وهو بالتالي مرفوض شرعا، وفي نفس الاتجاه أفتى العديد من العلماء باستباحة الأضرحة والزوايا إذا استعملت لحماية العصاة والخارجين عن طاعة أولي الأمر.<sup>2</sup>

1 - محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس، طبعة حجرية فاس، 1899.

2 - محمد المنصور "الحرم"، 3386.

## المصادر والمراجع

- ابن منظور، لسان العرب، مطبعة دار المعارف، ج 2.  
أبو القاسم الزياني، الترجمان المغرب، باريس، 1986.  
أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن 19 (1850-1912)، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1983.  
أحمد الناصري، الاستقصا  
أحمد عمالك، جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2006،  
عبد الكريم الربيعي، زهر الأم، دراسة وتحقيق آسية بنعدادة، الرباط، 1992.  
عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري، منشورات جامعة الحسن الثاني، 1989.  
لطيفة شراس، تاريخ التصوف بتادلا، مقارنة وظيفية، منشورات كلية الآداب باكادير، 2019،  
محمد المازوني، " من قضايا الحماية القنصلية بالمغرب خلال القرن التاسع عشر، الحماية البريطانية لشيخ الزاوية المصلوحية"، ضمن كتاب جماعي، تحت عنوان: " التصوف المغربي مصدر اشعاع وتواصل، منشورات كلية الآداب، القنيطرة، 2015.  
محمد المنصور، " الحرم"، معلمة المغرب.  
محمد المنصور، "التعركيبة"، معلمة المغرب  
محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط، 1986،  
محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس، طبعة حجرية فاس، 1899.  
محمد بن عسكر الشفشاوني، دوحة الناشر، تحقيق محمد حجي، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، البيضاء، 2003.  
محمد عبد السلام الضعيف، تاريخ الضعيف، تحقيق أحمد العماري، الرباط، ط 1986.  
محمد عمراني، " الحرم العلمي"، معلمة المغرب، ج 10.  
محمد عمراني، الشرف والمجتمع والسلطة السياسية بالشمال الغربي المغربي، بين النصف الثاني من القرن 13هـ/ ونهاية 15-19م. دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2015.  
✓ E. Westermark, **ritual and belief in morocco**, vol2, New York, 1968, vol 2.